بعد (الجنرال بروفة) نافذة على ظلال غائب

باسم عبد الحميد حمودي

تقدم اليوم ضمن نشاطات نهارات (المدى) الخاصة باستذكار حياة واعمال الروائي العراقي الكبير غائب طعمة فرمان مسرحية (ظلال على نافذة غائب) التي كتبها للمسرح الاستاذ علي حسين واخرجها الفنان حيدر منعثر

وقد حصلت على فرصة مشاهدة (الجنرال بروفة) الخاصة بهذا العمل المسرحي الطيب الذي شارك فيها عدد من الفنانين المرموقين وفي مقدمتهم الرائد سامي عبد الحميد والفنان سامي قفطان والفنانة الكبيرة شذى سالم والفنانين المتألقين زهرة بدن ورياض شهيد ومحمد هاشم وجمال الشاطي وميلاد سري.

كان شجياً ان يقف سامي عبد الحميد ليجسد شخصية غائب وان يتحرك سامي قفطان بحيويته المعهودة لـ(يشخص شخصية حسين مردان في (خمسة اصوات) وشخصيات اخرى وان تتحرك شذى سالم على المسرح بلتقائيتها.

ان الجمهور الذي ستتاح له مشاهدة (نافذة على ظلال غائب) في (نهار غائب) وهو نهار المدى التاسع سيكون مستعدا لمشاهدة العرض من جديد لو قدر لهذه المسرحية ان تقدم من جديد دون ان يقف عرضها عند حدود (نهارات المدى) بل ان يكون (نهار غائب) فاتحة لعروض مستمرة لهذا المسرحية المصممة لتقدم عدة شخصيات من اعمال غائب

في تاكيد احترام التجارب الاكبر وفي جماعية العمل الفني وفي القدرة على تقبل الملاحظة وتعديل مسار الشخصية تذكرني هذه الصورة العملية للمسرح بتقاليد فرقة المسرح الحديث الذي كنت اشرف بحضور بروفاتها منذ عام ١٩٥٩ ايام ابراهيم جلال ويوسف العاني وزينب وناهدة الرماح وآزو والرائع سامي عبد الحميد والمرحوم فاروق فياض وفاضل خليل وسواهم من عناصر الفرقة الشابة.

ان الجمهور الذي ستتاح له مشاهدة (نافذة على ظلال غائب) في (نهار غائب) وهو نهار المدى التاسع سيكون مستعدا لمشاهدة العرض من جديد لو قدر لهذه المسرحية ان تقدم من جديد دون ان يقف عرضها عند حدود (نهارات المدى) بل ان يكون (نهار غائب) فاتحة لعروض مستمرة لهذا المسرحية المصممة لتقدم عدة شخصيات من اعمال غائب وينطلق صوتها رائعاً حلواً لتغني مجموعة اغان عراقية تتطلبها المشاهد الخاصة بهذا العرض الوثائقي التسجيلي لاعمال وحياة ابن بغداد غائب فرمان وهو يحكي وجعه وغربته وان يجسد الفنانون الاخرون شخصيات غائب الاولى كنت ارقب بفرح انفعالات المخرج حيدر منعثر وهو يعطي ملاحظاته الاخراجية للساميان ولسائر المجموعة حيث ينفذ الجميع ما يريده المخرج وهم يحملون اثقال تجاربهم السابقة ويجدون فيها متكأ لنشاطهم المسرحي الجديد.

وقد أسعدني بعد هذا التفاف الجميع بعد انتهاء البروفة النهائية حول المخرج والفنان الكبير سامي عبد الحميد ليستمعوا الى ملاحظتهما الادائية يشاركهم مدير المسرح اسعد عامر ومساعد المخرج جمال الشاطي كانوا بذلك يؤكدون على تقاليد المسرح العراقي الراسخة.

مثقفو وفنانو العراق البعيدون القريبون

يوسف العاني

لست مهجراً، ولا مهاجراً.. بل انا بعيد عن وطني - العراق- الذي يسكن في القلب والروح.. ولا ادري هل سيطول هذا البعد ام يقصر..؟

هنا في ارض عربية شقيقة عمان اسير في ارجائها كل يوم ولساعات احياناً والوجوه التي التقيها من وطني ايضاً..

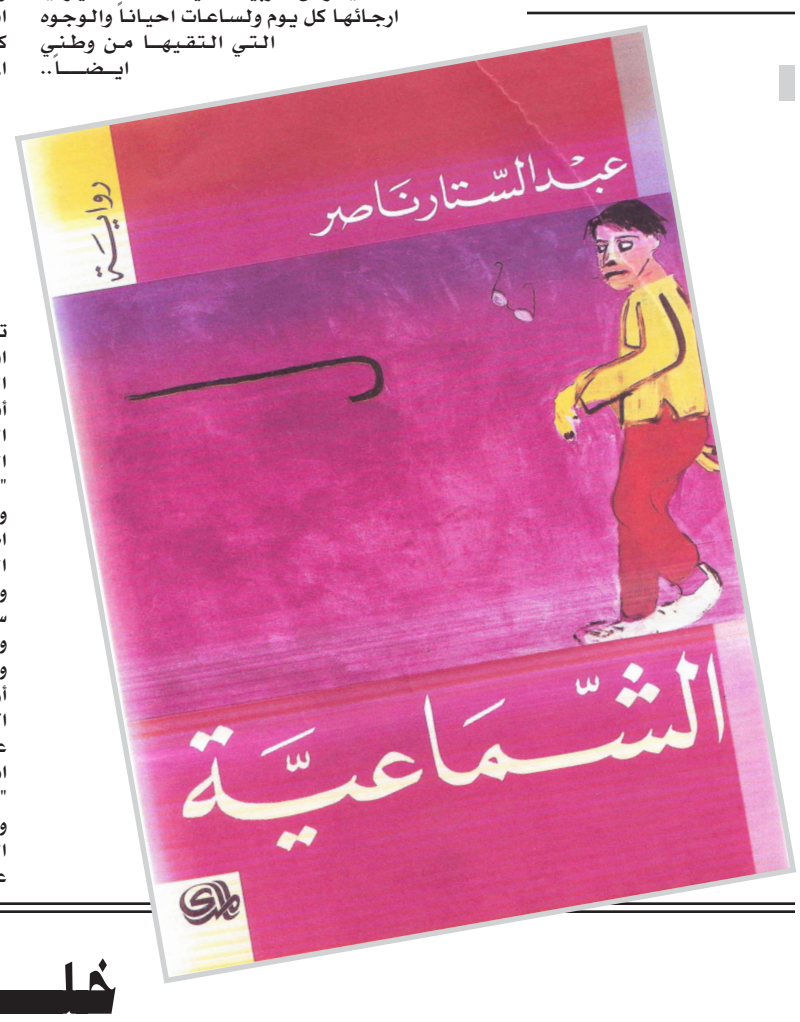

تحييني حد العناق والقبل لتطمئن على صحتي وعن "احوالي".. فلا ارد عن الاسئلة الا بجملة قصيرة واحدة:

"ما زلت اقف على الارض والعراق يملأ عيني وروحي..!"

انني احاول يومياً متابعة "احوال" اصدقاء كثيرين هم هنا فاسأل عن صديق العمر المبدع الكبير واستاذ الرواية والقصة ورائدها "فؤاد التكرلي" وقد شفي والحمد لله – كما اكد لي- من مرض اتعبه وأضناه..

وقد كتب ضمن ما كتب "بعيداً عن الجسد" ويسألني بعد ان قلب قاموس اللغة الانكليزية ثم قاموس اللغة الفرنسية عساه يجد ترجمة عربية دقيقة لكلمة ومفهموم "المونودراما" فقد انجز مسرحية تنتمي الى هذا اللون او هذه الصيغة المسرحية فأقول له: "انت بين تعبير: مسرحية الممثل الواحد او بكلمة افضل بتقديري.. مسرحية الشخصية الواحدة.." واذكر له قبل عدة سنوات وانا أبعث الى مؤتمر المونودراما في "الامارات العربية" بواحدة من مسرحياتي "أنيسة" التي تنتمي الى المونودراما ببحث كان عنوانه "تجربتي في المونودراما بين الفرض والافتراض..!" وابحث له عن الكتاب الذي اصدره الدكتور حسين علي هارف.. وكذلك البحث الذي كتبته الدكتورة "نهاد صليحة"

والتقي بعد سنوات من فراق لا ادري عدد سنواته عبد الستار ناصر البعيد عني والقريب مني بما يصلني منه من قصص ومقالات نقدية لا تبتعد عن القصة والرواية أراه امامي وكلانا يتذكر مفارقات عديدة عن الاخر..!

عبد الستار يتباهى لانه كان وفوزي كريم اول اثنين حجزا تذكرتين ليدخلا مسرحية "النخلة والجيران" عام ١٩٦٨.

واستعيد انا معه يوم اخترت قصته "العودة الى الطاطران" مع قصص عراقية عددها عشرة.. لاقدمها للتلفزيون كاتباً للسيناريو وممثلاً في واحدة منها "الياقوته" ليسلون هادي.. وابدلت عنوان قصته من "العودة الى الطاطران" لتكون بعنوان "اللغز"

ولم تمض ايام على لقاءاتنا أنا وعبد الستار واذا به يقدم لي روايته "قشور الباذنجان" التي صدرت قبل اشهر في عمان.. ولم تمض ايام قلائل ايضاً حتى قرأت الرواية وكتبت عنها ما يلي:

"حين قدمت (العودة الى الطاطران) للتلفزيون عام ١٩٩٧ اعتقد انني قرأت معظم ما نشر عبد الستار من قصص قصيرة لاختار تلك القصة وبقيت اقرأ ما يقع امامي من قصص وبعض مسرحيات نشرت له.. لكن الروايات ظلت بعيدة عن قراءاتي المباشرة بل كنت اقرأ ما يكتب عنها.

حين مسكت بـ"قشور الباذنجان" واقرأ ما كتب لي من اهداء جميل وحميم! حمسني ذاك الاهداء الى قراءة الرواية بخصوصية تكتسب اهمية "عبد الستار" عندي وفي حساب كتاب القصة والرواية لا سيما عبر سنوات اغترابه.

اجلت القراءة لاكون مؤهلاً لخصوصية تلك القراءة.. سيما وقراءتي للروايات الاثيرة عندي او كتابها الاثيرين عندي.. تستمر قراءتي لها وقتاً متواصلاً منذ الصفحة الاولى حتى آخر صفحة دون انقطاع الى قراءة اخرى تبعدني عن الرواية.

ولم اجد نفسي الا وانا ارفع سماعة الهاتف لاكلم عبد الستار وانا احمل كل مشاعر الاعجاب والتقدير واقول له كلمات كانت وما زالت مخلصة بحقه وبحق الرواية ودموع فرح تنساب شهادات –كما قلت- بل لم استطع اخفاء اعجابي الحار امام كثيرين من الذين التقيت بهم من العراقيين وغير العراقيين داعياً الى قراءتها فهي بتقديري الصادق أنموذجاً فذاً في الابداع والامانة وعمق الطرح وكشف حقائق اوشكت ظروف تلتها ان تطمرها او تضعها في موقع مقارنة لا تبرر ما كان من اجل ما هو كائن..

اما عبد الستار فقد اوعدني ان تكون روايته الجديدة "الشماعية" خلال ايام بين يدي لأقرأها وسوف -كما قال- ستؤذيني وتضاعف- القهر الذي ترتكته- قشور الباذنجان- رغم فرحي الكبير بها.

وكان عبد الستار ينتظر صدورها في دمشق من "دار المدى" وقبل ان يغادر عمان الى دمشق جاءني بالنسخة الاولى التي كتبها وطبعها ليقدمها هدية لي وقد كتب على صفحتها الاولى:

"ابو المسرح.. يوسف العاني

هذه النسخة الاولى والاساس من رواية الشماعية التي عشنا فيها ردحاً من الزمن وما زلنا تحت سقفها اهديها الى اول اسم عرفته واحببته في عالم المسرح"

عبد الستار ناصر

آب ٢٠٠٧

حين مسكت الرواية قلت له:

"سأكون اول من يدخل عالم روايتك - الشماعية- كما كنت انت اول من قطع تذكرة الدخول لمشاهدة مسرحية - النخلة والجيران-" رواية الشماعية كان لها موقع آخر الصيغة التي توسل بها عبد الستار وهو يقدم لنا الاحداث من خلال الشخصيات شخصية شخصية، وكأنه يوثق ويعمق كل شخصية وكل الاحداث تتداعى في اكثر من موقع دون ان تنعزل عما قرأت من قبل بل تتشوق الى ما سيأتي.. حتى تصل الى آخر سطر، وانت تحمل تمنيات في داخلك.. لو ان بعض الاحداث سارت الى مسارات اخرى.. وأتت بنتائج مخالفة الى ما وصلت اليه.. لكن حقائق الرواية كانت اقوى من ان ينحرف بها عبد الستار الى ما نريد ونتمنى وربما كما تمنى هو..

ان رواية الشماعية بتقديري حدث كبير في مسار الروايات الفريدة التي قراتها عبر سنوات..

وكنت كما اشرت اول من قرأها ودخل احداثها من بين كل قرائها..!

خلود القصيدة الرومانسية

ترجمة: فضيلة يزك

يتواصل الحديث عن الشعراء الرومانسيين حتى وان فات آوانهم. فقد تعكس القصيدة الفترة الزمنية التي كتبت فيها، لكن الشعراء الرومانسيين يستلهمون دائماً رؤى الخيال الأنساني بكتابتهم عن ما يمكن ان يوجد في الخيال، وفي الخيال فقط، فالخيال هو القصيدة نفسها تلك التي يؤكدها الاستمرار والدوام بألهام فكر الذين يقرأونها. حتى ولو كان ذلك القارئ شخصاً واحدا.

لقد بدأ عصر الرومانسية في أواخر القرن الثامن عشر وامتد حتى منتصف القرن التاسع عشر، وشهد ظهور شعراء أمثال: بليك، كيتس، ووردزورث وكوليرج. في ذلك الوقت كان العالم يشهد ثورات ومعارك دائرة في أمريكا وفرنسا وكانت تلك الثورات موضوع الحوار الرئيس لدى الجميع. فالأضطرابات واعمال الشغب في كل مكان، والأنتفاضات في كل البلدان، ومع قيام الأنتفاضات كانت هناك أيضاً أنتفاضة في عالم الشعر. فالشعراء في كل أنحاء الأرض بدأوا يعبرون عن وجداناتهم، رداً على قرن الكلاسيكية الجديدة، إذ ان صيغة الشعر السائد آنذاك كانت تحتوي على تراكيب صارمة ومشاعر مكبوته.

لقد ألهبت الأعمال عاطفة الشعراء بدلاً من ان تلهب الأعتبارات الفكرية، والخيال الحدسي بدلاً من المنطق. وأخذوا يفضلون التعبير عن العاطفة والحرية والفعل التلقائي بشكل صريح ومن دون قيود بدلاً من التعقيد وفرض النظام. لقد فهم شعراء الفكر الرومانسي الطبيعة على أنها روح حية، تتوافق مع مشاعر الحب والرحمة الأنسانية، وهم يتوقون الى أبدية لا يمكن بلوغها بسهولة، إذ أمن الفكر الرومانسي انه على الرغم من معرفة الأنسانية لجزء بسيط من الواقع من خلال حواسنا الخمس، فلا زلنا نشغل أنفسنا، الى حد كبير، بالحقائق العلمية والقيم المادية التي نكتسبها بحواسنا. وسلمنا بأننا لا ندرك الحقيقة الواسعة التي تقع خلف حدود حواسنا وتحقيق السيطرة الكاملة عليها ألا إذا تعلمنا الثقة بغرائزنا وطاقاتنا ورؤانا التخيلية.

نجد ان العاطفة الرومانسية الملتهبة بالحياة والطبيعة تتجسد في قصيدة شيلي "أغنية للريح الغربية " فهي قصيدة تدعو دعوة جادة لحدوث ريح شديدة، وتتناول بجدية روحية الفكر الرومانسي فترسخ القوة في الوجدان والريح الثورية العظيمة التي تجعل الطبيعة عاجزة عن الوقوف أمامها - (.. أعرف صوتي، يشحب وجهك فجأة من الخوف). لقد عبرت قصيدة "أغنية للريح الغربية" أيضاً عن التوق لفضاءات خيالية واسعة، ونالت عملية كتابتها بأتقان حظوة لدى شعراء الرومانسية. إذ لم يكن الشاعر شيلي وحده الذي انحاز الى مبدأ القوة لتجعل منه "مزمار نبؤة"، بل إلى الريح لتجعل منه قيثارة إذ قال: "إجعليني قيثارة"- والقيثارة رمز يتكرر لدى الفنان الذي يعزف على حالة الألهام.

كان السبب الرئيس وراء كتابة هذه القصيدة هو ان شيلي كان يحلم بتغيير يعتقد بأنه يلف الأرض كلها، حيث ان خيراً قد يخرج من جنبات الشر والضياع ليحتل العالم كله، فهو يستلهم الريح الغربية القوية، القوة التي مثلها بالشر، عالمه المتغير دائماً، وشعوره الخاص، الذي يعمل من خلاله لحدوث التغيير الذي يتمناه للعالم، وكان يعتقد ان حدوث مثل هذا التغيير ممكن. فقصيدة شيلي، آذن، كانت محاولة وجدانية لجعل الريح الغربية تثير فيه الثورة. هذه العاطفة التي أطلق عنانها في نفسه وفي شعراء رومانسيين آخرين أدت الى تكوين أدب يصور الموضوعات العاطفية بشكل خيالي، وبحب للطبيعة والحياة ولكل ما هو حسي، وكان أعظمها على الاطلاق؛ الحب والجمال والحقيقة والخالق. ولقد أوضح بليك اشتياقه لأدراك اللا نهاية والخلود والأفكار التجريدية الأُخر، عندما قال: "لرؤية الجمال في حبة رمل" والسماء في زهرة برية، تضع الخلود براحة يدك وتكون الأبدية في ساعة". ضمن أربعة ابيات يذكر بليك اربعة مفاهيم دقيقة، جميعها تقع ضمن الأشياء الحسية المجردة.

كانت هذه الكتابات العاطفية عن المحسوسات غزيرة بحالات الوصف التعبيرية. فالصور التي يكونها العقل عن تلك المحسوسات تكون أكثر تأثيراً من أي كلمات وصفية تحاول دائماً وصف الصورة نفسها. بالوصف الموجود في القصيدة، يتمكن القراء من أخذ الخبرة من الطرف الأخر من خلال تكوين صورة خاصة بهم- وبذات الأسلوب والنبرة العاطفية في الكتابة الرومانسية. مثل هذه الكتابات سيكون لهذا القدرة على التذكير بالنص دائماً. ليس هناك شاعر سواء كان رومانسياً أو من اتجاه أخر يستطيع ان يعرف ما هي المعاني التي يستقيها القراء من كتاباتهم. لأن كل قارئ له مفاهيمه، والقصيدة تشبه الصورة نلونها بمفاهيمنا الحياتية الخاصة. وعلى أية حال، بما ان القراء يستخدمون المعاني الخاصة بهم لفهم القصيدة، فسيكون للقصيدة تأثيرها الثابت والمستمر في اذهانهم.

ان "عين العقل" والتركيبة الشعرية التي ترافق دعوتها هي الأداة الرئيسة للخيال. لقد كان كوليرج أحد الشعراء الرومانسيين الذين صنفوا الخيال الى جزءين: الخيال الأولي الذي يشكل المعرفة والادراك الحسي الممكن؛ والخيال الثانوي، والذي يشكل الخيال الشعري الذي يوصل العقل المدرك الى حالة الانصهار بالشيء المدرك بعيداً عن العالم المحيط به. فالخيال الشعري هو قدرة العقل على احتواء "مشاعر عميقة وأفكار متبحرة" تعطي تفسيراً للأشكال وتعيد صياغة التجارب التي يعد وجودها في شاعر يشكل أهمية كبرى بالنسبة له، وفقدانها في قصيدة "أنكسار الخاطر: أغنية" شيء محزن جداً. توجد في العقل والنفس الانسانية، رغبات أساسية عديدة، وبحسب تعريف فرويد تقع ضمن الأنا المثالية التي تعمل لدى فرويد على أساس مبدأ اللذة وهي رغبة الأفراد في تلبية الأحتياجات الأجتماعية الأساسية (الغذاء، العائلة والجنس..الخ). والأنا المثالية هي أيضاً مصدر كل الأعمال الأبداعية وهي تشبه إلى حد ما الخيال الثانوي لدى كوليرج، الذي يعد مصدر كل استجابات القدرة الأبداعية. أنها هذا الاتساع الذي يكون الخيال الثانوي أو الأنا المثالية- وهذا هو السر في بقاء الشعر خالداً. وأنها أيضاً ذلك الخيال الشعري الثانوي/ الأنا المثالية التي تساعد على صياغة المعاني والأستجابات للقصيدة- لأن ليس الشاعر هو من يمنح المعنى في قصيدة ما للقراء، بل القراء أنفسهم هم من يصوغون المعنى. أعتماداً على السياق والثقافة الأجتماعية لدى القراء، إذ يمكن استنتاج قراءات لا حصر لها من النص، مع وجود بعض النصوص المعروفة أكثر من غيرها. لكن هذا الاتساع لم يكن هو الوحيد الذي يشكل المعاني والاستجابات والأفكار النقدية التي بثت روح الخلود في القصيدة. بل الحقيقة ان المعاني والأستجابات والأفكار النقدية هي التي كونت هذا الاتساع. فلا يعود خلود الشعر إلى كونه يحمل قافية جيدة، بل الى كونه مستلهماً بصورة جيدة. يقول كيتس: "ان الشعر يجب ان يكون عظيماً ومتواضعاً، يدخل روح الانسان، ولا يباغتها أو يحيرها بنفسه، بل بموضوعه". أنه موضوع الأعمال الرومانسية التي تلهم مثل هذه الأفكار العظيمة في الانسان- فبالنسبة للموضوع الرئيس في كل الشعر الرومانسي تقريباً هو موضوع مجرد. سواء كان هذا الموضوع عن، الحقيقة، الجمال، الحب أو حتى التوافق بين المحسوسات المجردة، فكل الأعمال الرومانسية كانت خاضعة للمفاهيمية بشكل معتدل تقريباً. ولكونها مواضيع مفاهيمية- ولدت من المفهوم- فالمجال الوحيد الذي يمكن ان توجد فيه هو العقل وحده - وفي وجودها، حتى وان كان للحظات المذاكرة القليلة بعد قراءة القصيدة. تبقى مؤكدة خلودها الى الأبد.

التوحّش

سميرة المانع

ما وجدتُهُ مكتوباً معلقاً على الحائط الحجري في (دير مار عوديشو) بقرية ديرني، القريبة من مدينة دهوك ومصيف سرسنك، شمال العراق يقول: (بوشر ببناء دير مار عوديشو، لقرية ديرني، الذي يعود تاريخه لسنة ٣١١ للميلاد، بعد قصفه بقنابل نابالم عبد السلام عارف سنة ١٩٦٣، تمت إعادة بنائه من قبل إلياس داود حنا والمقاول أحمد عبد الله العمادي، بعد جهود إيصال طريق السيارة اليه من قبل السيد محسن صالح أغا وهرمز ماميا سنة ١٩٨٤، أُكمل بناؤه في نهاية عام ١٩٨٥، لكنه فُجّر أثناء حملة الانفال في تاريخ ٤/ ٥/ ١٩٨٧ من قبل حكومة صدام حسين. أعيد بناء الدير بعد تفجيره في الانفال الاولى سنة ١٩٨٧، المشتركون في بنائه: منظمة الكنائس العالمية، حكومة اقليم كردستان والدكتور روز شاويش، بالإضافة إلى ما تبرّع به ابناء القرية المغتربون، وإلى واردات الدير. أُكمل بناؤه سنة ١٩٩٩.(2000 –

وقفت نهى تقرأ اللوحة وكأنها تسجل تاريخ العراق الدامي العنيف مؤخرا. أين عنها المؤرخون؟! تساءلت بينها وبين نفسها. دير عمره ما يقرب من ١٧٠٠ سنة. يا للخزي. لماذا يفجرونه؟! أختها لمياء مشغولة في الحديث مع إحدى الراهبات في ساحة الدير. كلتا الاختين على موعد مع (متي)، الواقف الصبور تحت الجبل بانتظارهما بسيارته الاجرة. لم يصعد بهما للمكان، شاكيا من صعوبة قطع الطريق الوعر بالسيارة. الدرب المبلط السالك نحوه قبلا، مملوء، الان، بالحصى والحجارة الضخمة الملقاة قصدا فيه. حدث هذا، كما فهمتا، تحسبا من أن يعتدي عليه أحد ممن يدعون أنفسهم بالاسلاميين بسيارة مفخخة. هذا ديدنهم في السنوات الاخيرة من دون وازع أخلاقي أوضمير، بلا أي اعتبار لقيمة انسانية أو تأريخية. عار ما بعده عار. نادت على أختها:

– لمياء، تعالي هنا، تعالي أقرأي.

اسرعت الأخيرة اليها بعد مصافحة الراهبة مودعة، تشكرها على السماح لهما برؤية هذا الدير الاثري، وهوجزء، لا شك، من أهمية المكان. توجهت رأسا، إلى حيث تقف نهى. بدأتا بالقراءة ممتلئتين آنزعاجا وحزنا. كيف يُدمّر الناس مكانا مسالما للعبادة؟ من يسمع ومَن يجيب؟!

(متي)، بدوره، ظل واقفا، متكئا على سيارته في اسفل الجبل بانتظارهما. لقد تطوع كي يريهما مناظر ومواقع المنطقة الخلابة البكر، بعد أن اتصلا بوالدته (أم متي) تستنجدان بها كي تساعدهما في إيجاد مكان مناسب للسكن عند وصولهما (دهوك) قبل ثلاثة أيام. من حسن حظهما، تفرغ (متي) لنقلهما بسيارته من مكان لآخر للمشاهدة والزيارة. أطلعهما على شلالات وينابيع طبيعية، جبال مهيبة، سهول غناء، هضاب مخضرة، بعد لم تصل لها يد العمران، والتجارة والمصارف والسياحة العالمية. قالت لمياء معقبة على جمالها، متذكرة ما حدثهما به التونسي، رفيق الطريق بمطار لندن، وكيف استطاع بورقيبة، أول زعيم لتونس، بعد استقلالها في الخمسينات، من تحويل جمال الطبيعة فيها إلى ثروة للاقتصاد الوطني:

– سنكون، أنا ونهى، بعض شهود على هذه المنطقة الغنية البكر، المتروكة للحظ والنصيب من قبل ابنائها والتي تحملت ما يكفي من العنف والآلام من قبل حكام جهلة أنانيين. من المحتمل تغييرها في غضون سنوات قليلة إلى مناطق يحج لها الآلاف من البشرمن كافة أنحاء المعمورة، ومن الشعب العراقي بالخصوص في شهور الصيف، إذا ما أخلصت النيات وتعاونوا مع بعضهم بعضاً، كما حصل بتونس، واسبانيا وغيرهما، صارت الطبيعة الجميلة أكثر نفعا من الثروة النفطية التي يكثر الطامعون بها، فضلا عن التلوث البيئي.

سمع (متي) ما قالته وهو يسوق السيارة وكدليل على صحة رأيها والبرهنة على ضياع الاموال والفرص، عكف (متي) مقود سيارته إلى جهة تؤكد وتشير لعدم الاخلاص للمصلحة العامة فيها، يوما، موضحا:

– سأريكما الآن ما يخجل منه الانسان السوي.

وفعلا آبتدأ يسير بطريق مبلط طويل لا يرى من على جانبه إلا حائط عالٍ عازل مبنيٍ من الآجر المفخور. ظلت سيارته تسابق الكيلومترات من هذا الطريق فلا تنهيه.

– ماذا وراء هذا الجدار؟

تساءلت نهى مستغربة

– بقايا قصور صدام حسين التي بناها لنفسه قرب شلالات المنطقة والينابيع الطبيعية العذبة وعلى قمم الجبال العالية وسيجها، كما ترون، بجدران عالية منيعة، كي يمنع السكان من الوصول اليها أو إلقاء نظرة ولو قصيرة عليها أوعلى بيوت حاشيته وأخدانه القريبة من قصره.

– وهل الوصول إليها اليوم سهل؟

– نعم، الوصول إليها اليوم من أسهل الاشياء، فلقد هدم السكان الغاضبون المتضررون، السياج بمواقع عدة، أثر سقوط النظام، لم يبق جزء لم ينله التدمير من تلك القصوروالدور أيضا. أنظرا، هنا، مثلا، وهناك، على مسافة أقصر. المفارقة الصارخة، أراد، بتفكيره الساذج وربما باقتراح مستشاريه المتملقين أن يخلد اسمه على السياج بكتابة الحرفين الاولين منه فقط، أي (ص. ح) على آجرتين، بين مسافة وأخرى على طول السياج، لكن، أنظرا للنتيجة. السياج ثقبه السكان من هاتين الآجرتين، المنقوشتين بالذات، على طول الجدار. انتزعت الآجرتان المكتوب عليهما (ص. ح) صار مكانهما فجوات وثقوب فاغرة. كذا فعلوا مع قصوره الاخرى لمحو اسمه وآثاره، يقال إن بالشمال، فقط، أكثر من أربعين قصرا، كلها دمرت، لم تقدر الاهالي على تحمل منظر أوترك أي ذكر له أوأثر في المنطقة كلها، من كثرة ما عانوا منه.

مندهشتان، متعجبتان، تتطلعان إلى قمم جبال، عليها قصور متهدمة، تحتاج إلى مناظير أو تلسكوبات كي تفحص بوضوح. تساءلت إحداهما:

– وكيف يصل إليها؟

– بطائرات الهيلوكوبتر.

ثم ذكّرهما (متي) بمثل قديم: " ما طار طير وارتفع، إلاّ كما طار وقع "

جرى كل هذا، بعد أن انتقلت الاختان إلى مصيف سرسنك، بعد ترك فندقهما المتعب الذي أنزلهما فيه السائق من الحدود العراقية/ التركية، وكان محطتهما الاولى بالمدينة القديمة (دهوك). هناك اكتشفتا من الليلة الاولى، وهما تسيران على الاقدام بانحاء المكان، أنه يتوسط موقعاً كثير الضجة، مكتظاً بالمقاهي والدكاكين المغبرة المهملة، سواقي مجارٍ محيطة به وكأنها بنيت في فترة ما قبل التاريخ. لم يبذل أحد جهدا في تغطيتها وهي تتمعج كالحية الزرقاء مكشوفة آسنة. قريبا منها يباع الكباب المشوي والفشافيش/ الاكباد، الدجاج المحمص المتقلب باسياخ الحديد بافران زجاجية كهربائية في الهواء الطلق. الناس جالسون على كراسي أو تخوت يأكلون ويدخنون، يتحدثون لاهين دون أن يعبأوا بمنظرها أو بالرائحة المخلوطة بالعفونة مع رائحة اللحم المشوي. أثناء سيرهما تلك الليلة، وحدهما، دون دليل، واجهتا أعدادا كبيرة من السكان قادمة من بغداد والمدن العراقية الأخرى. وجوههم شاحبة، قلقة، تفتش عن مأوى للسكن. يسألونهما بلهفة عن سعر فندقهما وعنوانه، متحدثين عن غلاء اسعار الفنادق التي ارتفعت، هنا، فجأة كالحر الشديد ببغداد وغيرها من مدن الجنوب الذي اشتد قيظها، بالاضافة إلى آنعدام الأمن والتفجيرات العشوائية. الشهر، كما هو معلوم، شهر آب (اللهاب) والكهرباء مقطوعة معظم الوقت، يفجر المخربون مؤسساتها راغبين في أن لا يستقيم الوضع، آنتقاما، كي يتذمر الناس فتسقط الحكومة جراء ذلك و عذرهم أن الاحتلال الاميركي جاء بها وهو يُلعن.

أدركتا، وهما تتجولان في المنطقة، أن المدينة كلها في وضع نقاهة بعد مرض طويل من الاهمال وعدم العناية وهي تشبه بقية مدن العراق اللاحامي لها من الحكومة السابقة، تحتاج إلى منقذ دائم مخلص. في صباح اليوم التالي، لم تتحملا الاوضاع الخدمية بالفندق ولا الوضع المتردي في الخارج. اتصلتا بوالدتهما ببغداد ذاكرتين لها وصولهما أمس، مشتكيتين من صعوبة ظروفهما من حيث السكن، آملتين أن تجدا فندقا أفضل، اليوم، والاتصال بها من أجل إعطاء عنوانه كي يتم اللقاء القريب. بعدئذ، أثناء المحادثة معها ذكرتهما بـ (أم متي)، أنسيتماها؟! المرأة الطيبة الآشورية التي اشتغلت عاملة في بيتنا في الماضي بعد زواجي، هي تسكن (دهوك). طالما اتصلت بي حين تزور بغداد، تزورنا أحيانا، وأنا أحنّ لها كأختي. كانت شابة في مقتبل العمر، كمعظم الشغّالات النازحات من الارياف والمدن العراقية المهملة بالعراق. عوائل، عوائل، بحثا عن الرزق والوظائف، والحكومات في العاصمة بغداد لاهية كغانية لا تفكر إلا بنفسها.. وهذه قصة أخرى! أعطتهما رقم هاتف

(أم متي) على أمل الاتصال بها في أقرب فرصة كي تساعدهما.

المهم، سرعان ما وصلت (أم متي) بعد المخابرة، مع ابنها بسيارته الاجرة إلى فندقهما، وهي متلهفة، مشتاقة لرؤيتهما. عمرها أكثر من ثمانين سنة، تشكو، الآن، من أقدامها التي تعيقها عن السير وكأن، التصق بها طين، حسب تعبيرها. قدمت لهما، مبتسمة فخورا ابنها:

" هذا(متي)". كان عمره نفس عمر لمياء تقريبا وسبق أن لعبا معاً في طفولتهما. بعد السلام والحديث عن ذكرياتهما آقترح (متي) عليهما بالتفكير في الانتقال من هذا الفندق والبحث عن مكان آخر. من المحبذ، برأيه، أن يفتشا عن فندق أخر بمصيف سرسنك القريب. رحبتا بالفكرة وحزمتا أمرهما على ترك المكان غدا صباحا متفقين على أن يأتي كي يأخذهما بسيارته، وهكذا صار لهما رفيقا في الطريق منذ ذلك الحين.

صُفق الباب بعد دخول نهى فعرفت أختها أنها عادت من محل الخبز القريب. صار روتين حياتهما واضحا منذ أن استقرتا في هذا البناء الواسع المهبهب بالغرف والشقق في مصيف سرسنك. المكان على هذا التصميم، اللا فواصل به بشكل محكم، يناسب المالك. قسم من جدرانه من الخشب العادي، تتحرك، إذا شاء، حسب الحاجة. يسع عشر عوائل وأكثر، تبعا لكثرة الزبائن واكتظاظهم حسب الموسم. إنهما بانتظار وصول والدتهما وأخيهما من بغداد مع عروسه. كل شيء يهون، أثناء توقع ذلك، غدا. تعدلان المكان الذي سكنتا به بالتنظيف والترتيب، مهيئتين نفسيهما لليلة الانتظارالاخيرة على أحر من الجمر. دخلت، قبل قليل، لمياء للحمام بعد يوم كامل قضته في التحسينات والترميمات التي أجرتها لتصبح الشقة فعلا شقة، بتقديرها. تملأ، حينا، كأسا زجاجيا بالماء لتضع فيه وروداً برية وجدتها تشبه النرجس، مرة أخرى تنفض وتمسد المقاعد والتكايا للجلوس أمام التلفزيون. تعلق قطعة قماش على شباك ليشبه الستارة. بين حين وآخر، تلمح مالك البناية من النافذة، ضخم الجثة، جالسا أمام الباب على كرسي. يسكن، كما فهمتا منه، بمدينة العمادية ويأتي، يوميا، لهذا المكان لاجراء اللازم ومعاينة المؤجرين ومحاسبتهم في دفع الايجار مقدما، خوفا من فرارهم، ليلا، أثناء غيابه. أولاده الاربعة يعوضونه من ناحية الرشاقة، يتراكضون في البناية، خفافا، مسيطرين على الداخل والخارج بعيون شديدة الحدة بالنظر.

عندما خرجت لمياء من الحمام، تطرقت، رأسا، لصلب الموضوع:

– لايمكن أن تتصوري الوقت الذي أضعته والمعقمات التي استخدمتها في الحمام هنا. كل شئ فيه مكشوف مسطّح. البقعة النظيفة تتسخ بما يسمى هنا طهارة. يا الله، كم كانت قذارتها مرعبة.

– مثلي تماما البارحة، كأننا قدمنا من لندن لتنظيف حمام الشقة.

– الشئ الآخر الذي ربما لم تفطني له، هو أن مقاعد اسرة نومنا محشوة بقش يابس بدل القطن أو الاسفنج؟

– لم ألحظ ذلك. المهم أن يكون القش نظيفا.

– على أية حال، انتهينا الآن والحمد لله، لا نريد أن نستمر بالخوض في همومنا. دعينا نبتعد قليلا الليلة. رجاء افتحي محطة تلفزيون مسلية للترفيه، أو ربما هناك فيلم وثائقي عن الحيوانات، أو الطبيعة. كفانا أخبارا.

– صدقت.

ظلت نهى تضغط على زرّ الآلة لتشغيلها. لحسن الحظ، أوصل صاحب البناية، بعد سقوط النظام، تلفزيونات البناية بالهوائيات الفضائية بالعالم كغيره من العراقيين، من شدة الشوق للعالم الخارجي كله. سطوح البيوت تنتقم من الخوف سابقا، اشهرت اسطوانة الستلايت المستديرة بوضوح، كعلم وطني، يثبت كون المتواجدين داخلها صاروا أحراراً، أخيرا.

سرسنك

نهى لا زال أصبعها يفتش عن فضائية عربية بالرموت كونترول، متنقلة من محطة إلى أخرى، تظهر وجوها تلوك كلاما يتناقشون به. علقت لمياء:

– وقع الناطقون بالضاد على كنز لا ينضب، كما يبدو. أفواه كثيرة تقول شيئا لا جدوى منه، سعيدة كونها ظهرت على الشاشة وأرضت نرجسيتها، كأنها في حفلة صيد وقنص لولا قلة المحصول.

ردت نهى على أختها، تقفز اصابعها على الازرار لتغيير المحطات بسرعة:

– يتهاوشون فيما بينهم، يقاطع ويفند بعضهم بعضا حول مواضيع سياسية، محال أن يتفقوا على رأي. الغالبية منهم رجال، نادرا ما تظهر امرأة سياسية مثلهم، متفرعنة، الأنا عندها لا يعلى عليها.

– المنطقة مشغولة بمشاكل متكررة، تلعق جروحها وتضمدها. ما الحل؟ في أحيان كثيرة، يتهم كل واحد منهم الآخر بالعمالة. اتهام سهل، بسيط لديهم. منذ سنين، وهذا ديدنهم. لقد انتشرت وسائل الاعلام الحديثة وتطورت ونحن لانسمع إلا بهذه الانباء والاتهامات. الآن بدأت حالة التخويف بالردة والتكفير. كي يتحكموا بالعالمين مكان الله الغفورالرحيم. ماذا بقي عندنا؟ الخيبة شيء اعتيادي، جزء من نسيج حياتنا اليومي. لا شغل لنا إلا لاستقبال الاسوأ. التفجيرات من جهة، الحروب، الاعتداء العنيف على حياة الافراد المخالفين لهم لكي يموتوا أو يصبحوا أقزاما، قميئين من الرعب، الحصارالاقتصادي بسبب سوء سياساتهم وتدابيرهم هو الرائج، المنافسة، الغيرة، التكالب على السلطة والنقود، أمور لا تتوقف.

نظرت نهى إليها ثم للشاشة قائلة:

– المتكلم يظهر دائما عفيفا بريئا، بل ملاكا أحيانا ولديه الخبر اليقين.

انتبهت لمياء لضياع الوقت:

– دعينا، بالله عليك، منهم.

نفضت نفسها قائمة من مكانها ضجرة:

– سأذهب إلى الشرفة لعلّي أجد أحدا أدردش معه من النزلاء.

– أوه، أكيد، صاروا كثيرين. رأيتهم قبل قليل يخرجون بالعشرات من باصات محملة بهم قادمة من المدن العراقية. صاحب البناية طمع بهم. يتفاوض وإياهم كي يناموا على الحشيش الليلة، على ما فهمت، هنا، في حديقة البناية.❖

❖ الفصل السابع عشر من رواية (مَن لا يعرف ماذا يُريد) المعدة للطبع.